

مفاتيح القلوب

كل باب له مفتاح.. والمفتاح المناسب لفتح قلوب الناس هو معرفة طبائعهم.. حل مشاكل الناس.. الإصلاح بينهم.. الاستفادة منهم.. اتقاء شرورهم.. كل ذلك تصبح فيه بارعاً إذا عرفت طبائعهم..

افرض أن شاباً وقع بينه وبين أبيه خلاف.. اشتد الخلاف حتى طرده أبوه من البيت.. حاول الابن العودة مراراً لكن الأب كان عنيداً مُصراً.. دخلت للإصلاح بينهما.. حدثت الأب بالنصوص الشرعية.. خوفته من إثم القطيعة.. لم يلتفت إليك .. كان مشحوناً غاضباً جداً.. أردت أن تستعمل أساليب أخرى للإصلاح.. عرفت من طبيعة هذا الأب أنه عاطفي جداً.. جئت إليه وقلت:



يا فلان.. أما ترحم ولدك.. يفترش الأرض.. ويلتحف السماء..!! أنت تأكل وتشرب.. والمسكين يبيت طاوياً ويصبح جائعاً.. أما تذكره إذا رفعت كسرة الخبز إلى فمك.. أما تذكر مشيه في حر الشمس.. أما تذكر لما كنت تحمله صغيراً.. وتضمه إلى صدرك.. وتشمه وتقبله.. أيرضيك أن يستجدي الناس وأبوه حي!!..

تجد أن عاطفة الأب تهيج بهذا الكلام.. ويقترب أكثر من نقطة الالتقاء.. وإن كان أبوه بخيلاً محباً للمال.. قلت له:



يا فلان أنتبه لا تورِّط نفسك.. أرجع الولد تحت نظرك وتصرفك.. أخشى أن يسرق أو يعتدي.. فتُلزمك المحكمة بسداد ما أخذ.. وإصلاح ما خرب.. فأنت أبوه على كل حال..

انتبـه.. تجـد أن الأب البخيـل سـيبدأ يعيد موازينـه من جديـد.. وإن كان كلامك موجهاً إلى الابن.. وكان جشعاً محباً للمال.. قلت له:

يـا فلان.. لن ينفعك إلا أبوك.. غداً سـتحتاج أن تتزوج.. من يسـدد مهرك؟ لو تعطلت سـيارتك مـن يصلحها؟ لو مرضت.. من سيحاسـب المستشـفى؟ إخوانك يستفيدون كما شاءوا.. مصروف.. هدايا.. وأنت جالس هكذا.. ما يضرك أن تصلح ذلك كله بقبلة تطبعها على جبين أبيك.. أو كلمة آسف تهمس بها في أذنه..

وكذلك لـو دخلت للإصلاح بين زوجة وزوجها.. فعلـت مثل ذلك.. وفتحت باب كل واحد منهما بالمفتاح المناسب..

ومثلـه لـو أردت إجـازة مـن مديـرك في العمل.. وعرفـت أنـه لا يلتفت إلى العواطف ولا الأمور الاجتماعية.. وإنما عمل (وبس!)..فقلت له:



أحتـاج إلى إجـازة ثلاثة أيـام أجدد فيها نشـاطي.. وأستعيد حيويتي.. أشعر أن إنتاجيتي مع ضغط العمل تنحدر تدريجياً.. أعطني فرصة لإراحة (رأسـي) فقط ثلاثة أيام.. لأعود أنشط وأقدر..

وإن كان اجتماعيـاً.. تلحـظ من خلال تعاملاته.. أنه حريص على الأسـرة والعائلة.. قلت له: أريد أجازة لأرى والديَّ.. أولادي.. أشعر أنهم في واد وأنا في واد آخر.. **إلى غير ذلك.. اتقن هذه المهارة.. وستسمع الناس غداً يقولون:** **ما رأينا أبرع فلاناً في القدرة على الإقناع..!!**

نتيجة..



كل إنسان له مفتاح..ومعرفة طبيعة الإنسان تدلّك على معرفة مفتاحه المناسب..

مراعاة النفسيات



تتقلب أمزجة الناس في حياتهم بين حزن وفرح.. وصحة ومرض.. وغنى وفقر.. واستقرار واضطراب.. وبالتالي يتنوع تقبلهم لبعض الأنواع من التعاملات.. أو ردهم لها بحسب حالتهم الشعورية وقت التعامل.. فقد يقبل منك النكتة والطرفة ويتقبل المزاح في وقت استقراره وراحة باله.. لكنه لا يتقبل ذلك في وقت حزنه.. فمن غير المناسب أن تطلق ضحكة مدوية في عزاء..!! لكنها تحتمل منك في نزهة برية.. وهذا أمر مقرر عند جميع العقلاء وليس هو المقصود بحديثي هنا.. إنما المقصود هو مراعاة النفسيات والمشاعر الشخصية عند الحديث مع الناس أو التصرف معهم..

افرض أن امرأة طلقها زوجها وليس لها أب ولا أم.. قد ماتا.. وجعلت تجمع أغرضها لتعيش مع أخيها وزوجته.. فبينما هي كذلك إذ دخلت عليها جارتها في الضحى زائرة.. فرحبت المطلقة بها.. ووضعت لها القهوة والشاي.. فجعلت الزائرة تبحث عن أحاديث لتؤانسها..

فسألتها المطلقة: بالأمس رأيتكم خارجين من المنزل.. فقالت الجارة: إي والله.. أبو فلان – تعني زوجها – أصرَّ على أن نتعشى خارج البيت فذهبت معه.. ثم مر السوق واشترى لي فستاناً لعرس أختي.. ثم وقف عند محل ذهب ونزل واشترى لي سواراً ألبسه في العرس.. ولما رجعنا إلى البيت رأى الأولاد في ملل فوعدهم آخر الأسبوع أن يسافر بهم.. والمطلقة المسكينة تستمع إلى ذلك وتتخيل حالها بعد قليل في بيت زوجة أخيها!!

السؤال: هل يناسب إثارة هذا النوع من الأحاديث مع امرأة فشلت في مشروع الزواج؟!! هل تظن أن هذه المطلقة ستزداد محبة لهذه الجارة؟ .. ورغبة في

مجالستها دائماً؟.. وفرحاً بزيارتها لها؟.. نتفق جميعاً على جواب واحد نصرخ به قائلين: لاااا.. بل سيمتلىء قلبها حقداً وقهراً.. إذن ما الحل؟

هـل تكذب عليها؟ لا.. ولكـن تتكلم باختصار.. كأن تقـول: والله كان عندنا بعض الأشـغال قضيناها.. ثـم تصرف الكلام إلى موضوع آخـر تصبرها به على كربتها..



أو افـرض.. أن صديقـين اختبرا نهايـة المرحلة الثانويـة.. فنجح أحدهما وتخرّج بتفـوق.. والثاني رسـب في عدد مـن المواد.. أو تخرّج بنسـبة ضعيفة لا تؤهله للقبول في شـيء من الجامعات.. فهل ترى من المناسـب عندما يزور المتفوق صاحبه أن يسـهب في الحديـث حـول الجامعـات التي تم قبولـه فيها.. والميزات التي ستُمنح له..؟

قطعاً جوابنا جميعاً: لا.. إذن ما الحل؟



الحـل أن يذكـر لـه عموميات يخفف بهـا عنه.. كأن يشـتكي من كثرة الزحام في الجامعات.. وقلة القبـول.. وخوف كثير مـن المتقدمين إليها من عدم القبول.. حتـى يخفف عن صاحبـه مصابه.. فيرغب عند ذلك في مجالسته أكثر.. ويحبه ويأنس بقربه.. ويشعر أنه قريب من قلبه..

وقُـلْ مثل ذلـك لو التقى شـابان أحدهما أبـوه كريم يغدق عليـه الأموال.. والآخـر أبـوه بخيل لا يكاد يعطيه مـا يكفيه.. فمن غير المناسـب أن يتحدث ابن الكريـم بإغـداق أبيه عليـه.. وكثرة المـال لديـه.. و.. لأن هذا النـوع من الكلام يضيق به صدر صديقه.. ويذكره بمأساته مع أبيه.. ويستثقل الجلوس مع هذا الصديق ويشعر ببعده عنه في همه..

لذلك نبه النبي ﷺ إلى مراعاة مشاعر الآخرين ونفسياتهم.. فقال: لا تطيلوا النظر إلى المجذوم [١].. والمجذوم هو المصاب بمرض ظاهر في جلده قد جعله مشوهاً في منظره.. فمن غير المناسب أنه إذا مرَّ بقوم أن يطيلوا النظر إلى جلده.. لأن هذا يذكره بمصيبته فيحزن..

وفي موقف غاية في المراعاة واللطف يتعامل ﷺ مع والد (أبي بكر) رضي الله عنه.. فإنه ﷺ لما أقبل بجيوش المسلمين إلى مكة لفتحها.. قال (أبو قحافة) أبو (أبي بكر) رضي الله عنه.. وكان شيخاً كبيراً.. أعمى.. قال لابنة له من أصغر ولده:

- أي بنية.. اظهري بي على جبل أبي قبيس لأنظر صدق ما يقولون.. هل جاء محمد؟ فأشرفت به ابنته فوق الجبل.. فقال: أي بنية ماذا ترين؟
- قالت: أرى سواداً مجتمعاً مقبلاً..
- قال: تلك الخيل..
- قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبراً..
- قال: أي بنية ذلك الوازع الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها..
- ثم قالت: قد والله يا أبتِ انتشر السواد..
- فقال: قد والله إذاً دفعت الخيل ووصلت مكة.. فأسرعي بي إلى بيتي.. فإنهم يقولون من دخل داره فهو آمن..

فانحطت الفتاة به مسرعة من الجبل.. فتلقته خيل المسلمين.. قبل أن يصل إلى بيته.. فأقبل (أبوبكر) إليه.. فاحتفى به مرحباً.. ثم أخذ بيده يقوده.. حتى أتى به رسول الله ﷺ في المسجد.. فلما رآه رسول الله ﷺ .. فإذا شيخ كبير.. قد ضعف جسمه.. ورقَّ عظمه.. واقتربت منيته.. وإذا (أبو بكر) رضي الله عنه ينظر إلى أبيه.. وقد فارقه منذ سنين.. وانشغل عنه بخدمة هذا الدين.. التفت إلى (أبي بكر) رضي الله عنه فقال مطيباً لنفسه.. ومبيناً قدره الرفيع عنده:

---

(١) رواه ابن ماجة وهو صحيح.

◄ هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟!

كان (أبو بكر) يعلم أنهم في حرب.. قائدهم رسول الله ﷺ.. وأن وقته أضيق.. وإنشغاله أكثر من أن يتفرغ للذهاب لبيت شيخ يدعوه للإسلام.. فقال (أبو بكر) شاكراً:

◄ يا رسول الله .. هو أحق أن يمشي إليك.. من أن تمشي أنت إليه..

فأجلس النبي ﷺ.. أبا قحافة بين يديه.. بكل لطف وحنان.. ثم مسح على صدره.. ثم قال:

◄ أسلم..

◄ فأشرق وجه أبي قحافة.. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

انتفض (أبو بكر) منتشياً مسروراً.. لم تسعه الدنيا فرحاً.. تأمل النبي ﷺ في وجه الشيخ.. فإذا الشيب يكسوه بياضاً.. فقال ﷺ:

◄ غيروا هذا من شعره.. ولا تقربوه سواداً..

نعم كان يراعي النفسيات في تعامله.. بل إنه ﷺ لما دخل مكة قسّم جيشه إلى كتائب.. وأعطى راية إحدى الكتائب.. إلى الصحابي البطل (سعد بن عبادة) رضي الله عنه.. كانت الراية مفخرة لمن يحملها.. ليس له فقط بل له ولقومه.. جعل (سعد) ينظر إلى مكة وسكانها.. فإذا هم الذين حاربوا رسول الله ﷺ.. وضيقوا عليه.. وصدوا عنه الناس.. وإذا هم الذين قتلوا (سمية) و(ياسر).. وعذبوا (بلالاً) و(خباباً).. كانوا يستحقون التأديب فعلاً.. هز (سعد) الراية.. وهو يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

سمعته قريش فشقّ ذلك عليهم.. وكبر في أنفسهم.. وخافوا أن يفنيهم بقتالهم.. فعارضت امرأة رسول الله ﷺ وهو يسير... فشكت إليه خوفهم من سعد.. وقالت:

يا نبي الهُدى إليك لجائيٌّ ... قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة ... الأرض وعاداهم إله السماء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر ... بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من ... الغيظ رمانا بالنسر والعواء
فانهينه إنه الأسد الأسود ... والليث والغٌ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى ... يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش ... بقعة القاع في أكف الإماء
إنه مصلت يريد لها القتل ... صموت كالحية الصماء

فلما سمع رسول الله ﷺ.. هذا الشعر.. دخله رحمة ورأفة بهم.. وأحب ألا يخيبها إذ رغبت إليه.. وأحب ألا يغضب (سعداً) بأخذ الراية منه بعد أن شرّفه بها..

فأمر (سعداً) فناول الراية لابنه (قيس بن سعد).. فدخل بها مكة .. وأبوه (سعد) يمشي بجانبه.. فرضيت المرأة وقريش لما رأت يد (سعد) خالية من الراية.. ولم يغضب (سعد) لأنه بقي قائداً لكنه أُريح من عناء حمل الراية وحملها عنه ابنه..



فما أجمل أن نصيد عدة عصافير بحجر واحد.. حاول أن لا تفقد أحداً.. كن ناجحاً واكسب الجميع.. وإن تعارضت مطالبهم..





اهتم بالآخرين

الناس عموماً يحبون أن يشعروا بقيمتهم.. لذا تجدهم أحياناً يقومون ببعض التصرفات ليلفتوا النظر إليهم..! وقد يخترعون قصصاً وبطولات لأجل أن يهتمّ الناس بهم أو يعجبوا بهم أكثر..

لو رجع رجل إلى بيته قادماً من عمله متعباً.. فلما دخل صالة البيت رأى أولاده الأربعة كل منهم على حال.. أكبرهم عمره إحدى عشرة سنة.. يتابع برنامجاً في التلفاز.. والثاني يأكل طعاماً بين يديه.. والثالث يعبث بألعابه.. والرابع يكتب في دفاتره..

فسلّم الأب بصوت مسموع.. «السلام عليكم».. فلم يلتفت إليه أحد .. ذاك منهمك مع برنامجه.. والثاني مأخوذ بألعابه.. والثالث مشغول بطعامه.. إلا الرابع.. فإنه لما التفت فرأى أباه.. نفض يده من دفاتره وأقبل مُرَحِّباً ضاحكاً.. وقبل يد أبيه ثم رجع إلى دفاتره..

أي هؤلاء الأربعة سيكون أحب إلى الأب؟ أجزم أن جوابنا سيكون واحداً: أحبهم إليه الرابع.. ليس لأنه يفوقهم جمالاً أو ذكاء.. وإنما لأنه أشعر أباه بأنه إنسان مهم عنده..

كلما أظهرت الاهتمام بالناس أكثر.. كلما ازدادوا لك حباً وتقديراً..

كان سيد الخلق ﷺ يراعي ذلك في الناس.. يُشعر كل إنسان أن قضيته قضيته.. وهمه همه..



قــام ﷺ على منبره يوماً يخطب الناس.. فدخل رجل من باب المسـجد.. ونظر إلى رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله.. رجل يسأل عن دينه.. ما يدري ما دينه؟! فالتفـت ﷺ.. فـإذا رجـل أعرابي .. قـد لا يكون مسـتعداً أن ينتظـر حتى تنتهي الخطبة.. ويتفرغ له النبي ﷺ ليحدثه عن دينه .. وقد يخرج الرجل من المسـجد ولا يعود إليه.. إنه يقطع الخطبة ليسـأل عـن أحكام الدين!! كان ﷺ يفكر من وجهة نظر الآخـر لا من وجهة نظره الشـخصية فقط.. نزل مـن على منبره الشريف.. ودعا بكرسي فجلس أمام الرجل.. وجعل يلقنه ويفهمه أحكام الدين.. حتى فهم.. ثم قام من عنده.. ورجع إلى منبره وأكمل خطبته..

آآآه ما أعظمه وأحلمه.. تربى أصحابه في مدرسته.. فكانوا يظهرون الاهتمام بالآخريـن.. والاحتفـاء بهم.. ومشـاركتهم أفراحهم وأتراحهـم.. ومن ذلك ما فعله (طلحة) مع (كعب) رضي الله عنه..

(كعـب بن مالك) رضي الله عنه شـيخ كبير.. نجلس إليـه.. بعدما كبر سـنه.. ورقّ عظمه.. وكفّ بصره.. وهو يحكي ذكريات شبابه.. في تخلفه عن عزوة تبوك.. وكانت آخر غزوة غزاها النبي ﷺ.. آذن النبي ﷺ الناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبـة غزوهـم.. وجمع منهم النفقـات لتجهيز الجيش.. حتى بلـغ عدد الجيش ثلاثـين ألفاً.. وذلـك حين طابت الظلال والثمار.. في حر شـديد.. وسـفر بعيد.. وعدو قوي عنيد.. كان عدد المسـلمين كثـيراً.. ولم تكن أسماؤهم مجموعة في كتاب..

قـال (كعب): وأنا أيسـر ما كنت ..قـد جمعت راحلتين.. وأنا أقدر شـيء في نفسـي على الجهـاد.. وأنا في ذلك أصغـي إلى الظلال.. وطيب الثمـار.. فلم أزل كذلـك.. حتى قام رسـول الله ﷺ غاديـاً بالغداة.. فقلت: أنطلق غداً إلى السـوق فأشـتري جهازي.. ثم ألحـق بهم.. فانطلقت إلى السـوق من الغد.. فعسـر عليَّ بعض شـأني .. فرجعت.. فقلت: أرجع غداً إن شـاء الله فألحق بهم.. فعسـر عليّ بعض شأني أيضاً.. فقلت: أرجع غداً إن شاء الله..

فلم أزل كذلك .. حتى مضت الأيام.. وتخلفت عن رسول الله ﷺ.. فجعلت أمشي في الأسواق.. وأطوف بالمدينة.. فلا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق.. أو رجلاً قد عذره الله..



نعم تخلّف (كعب) في المدينة.. أما رسول الله ﷺ فقد مضى بأصحابه الثلاثين ألفاً.. حتى إذا وصل تبوك.. نظر في وجوه أصحابه.. فإذا هو يفقد رجلاً صالحاً ممن شهدوا بيعة العقبة.. فيقول ﷺ:

- ما فعل (كعب بن مالك)؟!

- فقال رجل: يا رسول الله.. خلّفه برداه والنظر في عطفيه..

- فقال (معاذ بن جبل): بئس ما قلت.. والله يانبي الله ما علمنا عليه إلا خيراً..

فسكت رسول الله ﷺ..

قال (كعب): فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك.. وأقبل راجعاً إلى المدينة.. جعلت أتذكر.. بماذا أخرج به من سخطه.. وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.. حتى إذا وصل المدينة.. عرفتُ أني لا أنجو إلا بالصدق..

فدخل النبي ﷺ المدينة.. فبدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين.. ثم جلس للناس.. فجاءه المخلفون.. فطفقوا يعتذرون إليه.. ويحلفون له.. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً.. فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم.. واستغفر لهم.. ووكل سرائرهم إلى الله..

وجاءه (كعب بن مالك).. فلما سلّم عليه.. نظر إليه النبي ﷺ ثم تبسّم تبسّم المغضب.. أقبل كعب يمشي إليه ﷺ فلما جلس بين يديه.. فقال له ﷺ:

- ما خلفك.. ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ يعني اشتريت دابتك..

- **قال:** بلى..
- **قال ﷺ:** فما خلفك؟!
- **فقال (كعب):** يا رسول الله .. إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا.. لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر.. ولقد أُعطيت جدلاً.. ولكني والله لقد علمت.. أني إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عليّ.. ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ.. ولئن حدثتك حديث صدق.. تجد عليَّ فيه.. إني لأرجو فيه عفو الله عني.. يا رسول الله.. والله ما كان ليَّ من عذر.. والله ما كنت قط أقوى.. ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.. **ثم سكت (كعب)..**
- **فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه.. وقال:** أما هذا فقد صدقكم الحديث.. فقم حتى يقضّ الله فيك.

فقام (كعب) يجر خطاه.. وخرج من المسجد.. مهموماً مكروباً.. لا يدري ما يقضي الله فيه.. فلما رأى قومه ذلك.. تبعه رجال منهم.. وأخذوا يلومونه.. ويقولون:

- والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا.. إنك رجل شاعر أعجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون!.. هلا اعتذرت بعذر يرضى عنك فيه.. ثم يستغفر لك.. فيغفر الله لك..

قال (كعب): فلم يزالوا يؤنبونني.. حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي.. فقلت:

- هل لقي هذا معي أحد؟
- قالوا: نعم.. رجلان قالا مثل ما قلت.. فقيل لهما مثل ما قيل لك..
- قلت: من هما؟
- قالوا: (مرارة بن الربيع).. و(هلال بن أمية)..

فإذا هما رجلان صالحان قد شهدا بدراً.. لي فيهما أسوة.. فقلت:

- والله لا أرجع إليه في هذا أبداً.. ولا أكذب نفسي..

ثـم مضى (كعب) رضي الله عنه.. يسـير حزيناً.. كسـير النفس.. وقعـد في بيته.. فلم يمض وقت .. حتى نهى النبي ﷺ الناس عن كلام (كعب) وصاحبيه..

قـال كعـب: فاجْتَنَبَنا النـاس.. وتَغَيَّرُوا لنـا.. فجعلت أخرج إلى السـوق.. فلا يكلمني أحد.. وتَنَكَّر لنا الناس.. حتى ما هم بالذين نعرف.. وتنكرت لنا الحيطان.. حتى مـا هي بالحيطان التي نعرف.. وتنكرت لنـا الأرض.. حتى ما هي بالأرض الـتي نعـرف.. فأمـا صاحبـاي فجلسـا في بيوتهما يبكيـان.. جعلا يبكيـان الليل والنهار.. ولا يطلعان رؤوسـهما.. ويتعبدان كأنهما الرهبان.. وأما أنا فكنت أشَبّ القوم وأجْلَدَهُم .. فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.. وأطوف في الأسواق.. ولا يكلمني أحد.. وآتي المسـجد فأدخل.. وآتي رسـول الله ﷺ فأسلم عليه.. فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه.. فأسارقه النظر.. فإذا أقبلت على صلاتي.. أقبل إليَّ.. وإذا التفتّ نحوه.. أعرض عني..

ومضـت على (كعب) الأيـام .. والآلام تلـد الآلام.. وهو الرجل الشـريف في قومـه.. بل هو مـن أبلغ الشـعراء.. عرفه الملوك والأمراء.. وسـارت أشـعاره عند العظمـاء .. حتى تمنوا لقياه.. ثم هو اليوم.. في المدينة.. بين قومه.. لا أحد يكلمه.. ولا ينظر إليه.. حتى.. إذا اشتدت عليه الغربة.. وضاقت عليه الغربة..

نـزل به امتحان آخـر: فبينما هو يطوف في السـوق يومـاً.. إذا رجل نصراني جاء من الشـام.. فإذا هو يقول: من يدلني على (كعب بن مالك)..؟ فطفق الناس يشـيرون لـه إلى (كعب).. فأتاه.. فناولـه صحيفة من ملك غسـان.. عجباً!! من ملك (غسـان)..!! إذن قد وصل خبره إلى بلاد الشـام.. واهتم به ملك الغساسـنة.. عجباً!! فماذا يريد الملك؟!

فتـح (كعب) الرسـالة فإذا فيها: «أما بعد.. يا كعب بـن مالك.. إنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك.. ولست بدار مضيعة ولا هوان.. فالحق بنا نواسك»..
فلما أتم قراءة الرسالة.. قال رضي الله عنه: إن الله.. قد طمّع فيَّ أهل الكفر..!! هذا أيضاً من البلاء والشـر.. ثم مضى بالرسالة فوراً إلى التنور.. فأشعله ثم أحرقها فيه.. ولم يلتفت (كعب) إلى إغراء الملك..

نعـم فُتح لـه باب إلى بلاط الملـوك.. وقصور العظماء .. يدعونـه إلى الكرامة والصحبـة .. والمدينة من حولـه تتجهمه.. والوجوه تعبس في وجهه.. يُسـلم فلا يُرَد عليه السلام.. ويَسأل فلا يسمع الجواب.. ومع ذلك لم يلتفت إلى الكفار. ولم يفلح الشيطان في زعزعته.. أو تعبيده لشهوته.. ألقى الرسالة في النار.. وأحرقها.. ومضت الأيام تتلوها الأيام.. وانقضى شـهر كامـل.. و(كعب) على هذا الحال.. والحصار يشتد خناقه.. والضيق يزداد ثقله.. فلا الرسول ﷺ يمضي.. ولا الوحي بالحكم يقضي..

فلما اكتملت أربعون يوماً.. فإذا رسول من النبي ﷺ يأتي إلى (كعب).. فيطرق عليه الباب.. فيخرج (كعب) إليه.. لعله جاء بالفرج.. فإذا الرسول يقول له:

- أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك..
- **قال:** أُطَلِّقها.. أم ماذا؟
- **قال:** لا.. ولكن اعتزلها ولا تقربها..
- **فدخل (كعب) على امرأته وقال:** الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر..

وأرسـل النبي ﷺ إلى صاحبي (كعب) بمثل ذلـك.. فجاءت امرأة (هلال بن أمية).. فقالت:

- يا رسول الله.. إن هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف.. فهل تأذن لي أن أخدمه..؟
- **قال:** نعم.. ولكن لا يقربنك..
- **فقالت المرأة:** يا نبي الله.. والله ما به من حركة لشيء.. ما زال مكتئباً.. يبكي الليل والنهار.. منذ كان من أمره ما كان..

ومرت الأيام ثقيلة على (كعب).. واشتدت الجفوة عليه.. حتى صار يراجع إيمانه.. يكلم المسلمين ولا يكلمونه.. ويسلم على رسول الله ﷺ فلا يسمع رد السلام.. فإلى أين يذهب..!! ومن يستشير!؟

قـال (كعب) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلما طـال عليَّ البـلاء.. ذهبت إلى (أبي قتـادة).. وهو ابن عمـي.. وأحـب الناس إليَّ.. فإذا هو في حائط بسـتانه.. فتسـورت الجـدار عليه.. ودخلـت.. فسـلمت عليه.. فـوالله ما رد عليَّ السـلام.. فقلت: أنشـدك الله.. يا (أبا قتادة).. أتعلم أني أحب الله ورسـوله؟ فسكت.. فقلت: أنشدك الله.. يا (أبا قتادة).. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ **فقال:** الله ورسوله أعلم..

سمـع (كعب) هذا الجـواب.. من ابن عمـه وأحب الناس إليـه.. لا يدري أهو مؤمن أم لا؟ فلم يستطع أن يتجلد لما سمعه.. وفاضت عيناه بالدموع..



ثم اقتحم الحائط خارجاً.. وذهب إلى منزله.. وجلس فيه.. يقلب طرفه بين جدرانه.. لا زوجة تجالسه.. ولا قريب يؤانسـه.. وقد مضت عليهم خمسون ليلة.. من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامهم..

وفي الليلة الخمسـين.. نزلت توبتهم علـى النبي ﷺ في ثلث الليل.. وكان ﷺ في بيت (أم سـلمة).. فتلا الآيات.. فقالت (أم سـلمة): يا نبي الله.. ألا نبشر كعب بـن مالك.. قـال ﷺ: إذاً يحطمكم النـاس.. ويمنعونكم النوم سـائر الليلة.. فلما صلى النبي ﷺ الفجر.. آذن الناس بتوبة الله عليهم.. فانطلق الناس يبشرونهم..

قـال (كعب): وكنت قـد صليت الفجر على سـطح بيت من بيوتنـا.. فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى.. قد ضاقت عليّ نفسي.. وضاقت عليّ الأرض بما رحبت.. وما من شـيء أهم إليَّ.. من أن أموت.. فلا يصلي عليَّ رسـول الله ﷺ.. أو يموت.. فأكون من الناس بتلك المنزلة.. فلا يكلمني أحد منهم.. ولا يصلي عليّ..

فبينمـا أنا علـى ذلك.. إذا سمعت صوت صـارخ.. على جبل سـلع بأعلى صوته يقول: يااااا (كعب بن مالك)!.. أبشر.. فخررت ساجداً.. وعرفت أن قد جاء فرج من الله.. وأقبل إليَّ رجل على فرس والآخر صاح من فوق جبل.. وكان الصوت أسرع مـن الفرس.. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشـرني.. نزعت له ثوبَّي فكسـوته

إياهما ببشراه.. والله ما أملك غيرهما.. واستعرت ثوبين.. فلبستهما.. وانطلقت إلى رسـول الله ﷺ.. فتلقاني الناس فوجاً.. فوجاً.. يهنئونني بالتوبة.. يقولون: **ليهنك توبة الله عليك**.. حتى دخلت المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ جالس بين أصحابه..



فلما رأوني والله ما قام منهم إليَّ إلا (طلحة بن عبيد الله)... قام فاعتنقني وهنأني.. ثم رجع إلى مجلسه.. فوالله ما أنساها لطلحة..

فمشيت حتى وقفت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه.. وهو يبرق وجهه من السرور وكان إذا سُرّ استنار وجهه.. حتى كأنه قطعة قمر.. فلما رآني قال:

- **أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك..**
- قلت: أمن عندك يا رسول الله.. أم من عند الله؟
- قال: **لا.. بل من عند الله..**

ثم تلا الآيات.. فجلست بين يديه.. فقلت:

- يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق.. وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت..

نعم.. تاب الله على كعب وصاحبيه.. وأنزل في ذلك قرآناً يتلى.. فقال عز وجل:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١)

(١) التوبة: ١١٧ – ١١٨

والشـاهد من هذه القصة.. أن (طلحة) رضي الله عنه لما رأى (كعباً) قام إليه واعتنقه وهنـأه.. فزادت محبة (كعب) لـه.. حتى كان يقول بعد مـوت (طلحة).. وهو يحكي القصة بعدها بسنين: فوالله لا أنساها لطلحة..

ومـاذا فعل (طلحة) حتى يأسـر قلب (كعب)؟ فعل مهـارة رائدة.. اهتم به.. شاركه فرحته.. فصار له عنده حظوة..

الاهتمـام بالناس ومشـاركتهم في مشـاعرهم يأسـر قلوبهـم.. لو كنت في زحمة الامتحان.. ووصلت إلى هاتفك المحمول رسـالة مكتوب فيها.. بشرني عن امتحاناتك والله إن بالي مشغول عليك وأدعو لك، صديقك: إبراهيم..

أليس ستزداد محبتك لهذا الصديق؟ بلى..



ولـو كان أبـوك مريضـاً في المستشـفى.. فبقيت معه في غرفته وأنت مشـغول البال عليه.. واتصل بك صديق وسألك عنه.. وقال: تحتاج مساعدة؟ نحن في خدمتك.. فشكرته..

ثم في المسـاء اتصل وقـال: إذا الأهل يحتاجون أي شيء أشتريه لهم.. فأخبرني..

فشـكرته ودعوت له.. ألا تشـعر أن قلبك ينجذب إليه أكثر..؟

بينما لو اتصل بك آخر وقال:

- فلان.. نحن خارجون إلى نزهة في البحر.. هاه تذهب معنا؟ فقلت:
- والله والدي مريض ولا أستطيع..

فبدل أن يدعو له ويعتذر أن لم يسأل عن حاله..

قال لك: أدري أنه مريض لكن هو في المستشفى وعنده ممرضون ولن يستفيد من بقائك تعال معنا استمتع واسبح و...



قالها وهو يمازحك ضاحكاً.. وكأن مرض والدك لا يعنيه.. كيف ستكون نظرتك إليه؟ بلا شك أن قدره في قلبك ينخفض لأنه لم يهتم بهمومك..

من أحرج ما وقع لي من مواقف.. أني كنت مسافراً إلى جدة لعدة أيام.. كنت مشغولاً جداً.. وصلتني رسالة خلالها على هاتفي من أخي سعود كتب فيها: أحسن الله عزاءك في ابن عمنا فلان توفي في ألمانيا.. اتصلت بأخي فأخبرني أن ابن عمنا هذا- وهو شيخ كبير- ذهب قبل يومين لعلاج القلب في ألمانيا وتوفي أثناء إجراء العملية.. وأن جثمانه سيصل قريباً إلى مطار الرياض.. دعوت له وترحمت عليه.. وأنهيت المكالمة..

بعدها بيومين انتهت أعمالي في جدة وذهبت إلى المطار أنتظر وقت إقلاع رحلتي للرياض.. في هذه الأثناء كان يمر بي عدد من الشباب فإذا رأوني عرفوني وأقبلوا يسلمون وكانوا أحياناً من الشباب المراهقين لهم قصات شعر غريبة.. ومع ذلك كنت أمازحهم وأطلق التعليقات عليهم تحبباً وتلطفاً.. انشغلت بمكالمة هاتفية.. فلما أنهيتها فإذا شاب يلبس بنطالاً وقميصاً.. يراني فيقبل مُسلِّماً مصافحاً.. رحبت به وقلت مازحاً:

- ما هذه الأناقة.. أنت اليوم كأنك عريس.. ونحو هذه العبارات..
- سكت الشاب قليلاً ثم قال: ما عرفتني.. أنا فلان.. الآن وصلت من ألمانيا معي جثمان أبي.. وأنا متوجه إلى الرياض الآن على أقرب رحلة..

في الحقيقة.. كأنما صُبَّ عليَّ برميل ماء بارد.. صرت محرجاً جداً.. أبوه مات.. وجثمانه معه في الطائرة وأنا أمازحه وأضحك.. إن هذا لشيء عجاب!!

- سكتّ قليلاً ثم قلت: آآآسف.. والله ما انتبهت إليك.. فأنا هنا منذ أيام.. فأحسن الله عزاءك وغفر لوالدك..

وإن كنت في الحقيقة معذوراً في عدم انتباهي إلى شخصه.. فقد كنت لا أقابله إلا قليلاً.. وأراه بثوبه وغترته.. فلما لبس البنطال وجاءني في زحمة شباب من جدة.. لم يقع في نفسي أنه فلان..

فمن الاهتمام بالناس مشاركتهم في مشاعرهم وإشعارهم أن همهم هو همك.. وأنك تحب الخير لهم.. ومن هذا المنطلق تجد أن الشركات المتطورة يكون عندها إدارة للعلاقات العامة.. مهمتها إرسال التهاني والتبريكات في المناسبات.. وتقديم الهدايا.. ونحو ذلك.. الناس كلما أشعرتهم بقيمتهم وأظهرت الاهتمام بهم ملكت قلوبهم وأحبوك.. خذ أمثلة سريعة من الواقع:

لو دخل شخص إلى مكان مليء بالناس فلم يجد مكاناً يجلس فيه.. فتفسحت قليلاً.. وأوسعت له مكاناً وقلت تفضل يا فلان.. تعال هنا.. لشعر باهتمامك وأحبك.. أو لو كنتم في حفل عشاء.. وأقبل يحمل طعامه يتلفت يبحث عن طاولة فيها مكان فارغ.. فجهزت له كرسياً وقلت: حياك الله يا فلان.. تفضل هنا.. لشعر باهتمامك أيضاً.. عموماً أشعر الناس بقيمتهم.. يحبوك..

ولو نظرت في شمائله ﷺ.. لوجدت من بينها أنه كان إذا صافحه أحد لم ينزع ﷺ يده من يد المصافح.. حتى ينزع ذاك يده أولاً.. وكان ﷺ إذا كلمه أحد التفت إليه جميعاً.. أي التفت بوجهه وجسمه إليه يستمع وينصت..



أشعرهم أنك تحب الخير لهم



كلما كان قلبك مملوءاً بالمحبة والنصح للآخرين.. كلما صرت صادقاً في مهاراتك في التعامل معهم.. وكلما أحس الناس بحبك لهم.. ازدادوا هم أيضاً لك محبة وقبولاً..

كانت إحدى الطبيبات تمتلئ عيادتها الخاصة دائماً بالمراجعات.. وكانت المريضات يرغبن في المجيء إليها دائماً وكل واحدة تشعر أنها صديقة خاصة لهذه الطبيبة.. كانت هذه الطبيبة تمارس مهارات متعددة تسحر بها قلوب الآخرين..

من ذلك.. أنها اتفقت مع السكرتيرة أنها إذا اتصلت إحدى المريضات تريد أن تتحدث مع الطبيبة أو تسألها عن شيء يخص المرض.. فإذا السكرتيرة تسألها عن اسمها.. وترحب بها.. ثم تطلب منها التكرم بالاتصال بعد خمس دقائق.. ثم تأخذ السكرتيرة الملف الخاص بهذه المريضة.. وتناوله للطبيبة.. فتقرأ الطبيبة معلومات المريضة.. وتنظر إلى بطاقتها الخاصة.. ومعلوماتها الكاملة بما فيها وظيفتها وأسماء أولادها.. فإذا اتصلت المريضة.. رحبت بها الطبيبة.. وسألتها عن مرضها.. وعن فلان ولدها الصغير.. وأخبار وظيفتها.. و... فتشعر المريضة أن هذه الطبيبة تحبها جداً لدرجة أنها تحفظ أسماء أولادها وتتذكر مرضها.. ولم تنس مكان عملها.. فترغب في المجيء إليها دائماً.. أرأيت أن امتلاك القلوب وأسرها سهل جداً..

ولا بأس أن تعبر عن محبتك للآخرين بكل صراحة.. سواء كانوا أباً أو أماً.. أو زوجة أو أبناء.. أو زملاء وجيران.. لا تكتم مشاعرك نحوهم.. قُلْ لمن تحبه: أنا أحبك.. أنت غالٍ إلى قلبي.. حتى لو كان عاصياً قُلْ له: إنك أحب إليَّ من أناس كثيييير.. ولم تكذب فهو أحب إليك من ملايين اليهود.. أليس كذلك.. كن ذكياً..

أذكـر أني ذهبت مـرة لأداء العمرة.. وكنـت خلال الطواف والسـعي أدعو للمسلمين جميعاً.. بالحفظ والنصر والتمكين.. وربما قلت: اللهم اغفر لي واغفر لأحبابي وأصحابي.. وبعد انتهائي من شـعائرها.. حمدت الله على التيسـير.. ثم اكتريت فندقاً لأبيت فيه..



فلما وضعت رأسـي على وسادتي كتبت رسالة عبر الهاتف المحمول أقول فيها: الآن أنهيت العمرة وتذكـرت أحبابـي وأنـت منهـم فلم أنسـاك من الدعاء الله يحفظك ويوفقك..

انتهت الرسـالة.. أرسـلتها إلى الأسماء المخزنة في ذاكرة الهاتف.. كانت خمسمائة اسم..

لم أكن أتصور التأثير العجيب لهذه الرسالة في قلوب الآخرين..



منهم من أرسـل إلـيَّ: والله إني أبكـي وأنا أقرأ رسالتك.. أشكرك أنك ذكرتني بدعائك..

وآخر كتب: والله يا أبا عبدالرحمن ما أدري بم أرد عليك! ولكن جزاك الله خيراً..

والثالث كتب: أسـأل الله أن يستجيب دعاءك.. ونحن والله لا ننساك..

نحـن في الحقيقة نحتاج بين الفينة والأخرى أن نذكر الناس بأننا نحبهم.. وأن كثـرة مشـاغل الدنيا لم تنسـنا إياهـم.. ولا بأس أن يكـون ذلك بمثل هذه الرسـائل.. يمكـن أن تكتـب إلى أحبابـك: دعـوت لكـم بـين الأذان والإقامـة.. أو في ساعة الجمعة الأخيرة..

وإذا كانت نيتك صالحة فلن يكون في هذا إظهار للعمل أو رياء.. وإنما زيادة ألفة ومحبة بين المسلمين..

أذكر أني ألقيت محاضرة في مخيم دعوي صيفي في مدينة الطائف.. في جبال الشفا وهي متنزه يجتمع فيه أعداد كبيرة من الشباب كان أكثر الحاضرين هم من الشباب الذين يظهر عليهم الخير والصلاح أما الشباب الآخرون فقد بقوا في أطراف المتنزهات ما بين لهو وطرب..

انتهت المحاضرة.. أقبل جمع من الشباب يُسلِّمون.. كان من بينهم شاب له قصة شعر غريبة ويلبس بنطال جينز ضيق.. أقبل يصافح ويشكر.. فسلمت عليه بحرارة.. وشكرته على حضوره وهززت يده وقلت: وجهك وجه داعية.. تبسّم وانصرف..

بعدها بأسبوعين تفاجأت باتصال يقول: هاه ما عرفتني.. يا شيخ أنا الذي قلت لي وجهك وجه داعية.. والله لأصبحن داعية إن شاء الله.. ثم صار يشرح لي مشاعره بعد تلك الكلمات.. أرأيت كيف يتأثر الناس بصدق العبارة.. والمحبة..!

أما رسول الله ﷺ فقد كان يأسر قلوب الناس بروعة أخلاقه.. وقدرته على إظهار محبته الصادقة لهم.. كان (أبو بكر) و(عمر).. أجلَّ الصحابة وكانا يتنافسان في الخير دوماً.. وكان (أبو بكر) يسبق غالباً.. فإن بكرَّ (عمر) للصلاة وجد (أبا بكر) سبقه.. وإن أطعم مسكيناً وجد (أبا بكر) سبقه.. وإن صلى ليلة.. وجد (أبا بكر) قبله..

وفي يوم أمر النبي ﷺ الناس بالصدقة لسد حاجة نازلة نزلت بالمسلمين.. وافق ذلك الوقت أن (عمر) عنده سعة من المال.. فقال: اليوم أسبق أبا بكر.. إن سبقته يوماً.. ذهب عمر فجاء بنصف ماله.. فدفعه إلى رسول الله ﷺ.. فما أول كلمة قالها ﷺ لعمر لما رأى المال؟ هل سأله عن مقدار المال؟ أم سأله عن نوعه ذهب أم فضة؟ لا.. بل لما رأى ﷺ كثرة المال.. تكلم بكلمات يستنتج منها عمر أنه محبوب عند رسول الله ﷺ.. قال لعمر:

- ما أبقيت لأهلك يا عمر؟
- قال عمر: يا رسول الله.. أبقيت لهم مثله..

ويجلس عمر عند رسول الله ﷺ منتشياً.. ينتظر أبا بكر.. فيأتي (أبو بكر) رضي الله عنه بمال كثير فيدفعه إلى رسـول الله ﷺ وعمر واقف مكانه.. يرى العطاء ويسمع الحوار.. فإذا بالنبي ﷺ قبل أن يلتفت إلى ما يحتاجه من مال.. يسأل أبا بكر:

- يا أبا بكر.. ما أبقيت لأهلك؟ نعم فهو يحب أبا بكر.. ويحب أهله.. ولا يرضى بالضرر عليه..
- قال أبو بكر: يا رسول الله.. أبقيت لهم الله ورسوله.. أما المال فقد أتيت به جميعاً..

لم يأت بنصفه.. ولا بربعه.. وإنما أتى به كله.. فما كان من (عمر) رضي الله عنه إلا أن قال: لا جَرَم.. لا سابقت أبا بكر أبداً..

كان الناس يشـعرون أنه ﷺ يحبهم.. فكانوا يهيمـون به حباً.. صلى بهم ﷺ إحدى الصلوات.. فكأنه عجَّل بصلاته قليلاً حتى بدت أقصر من مثيلاتها.. فلما انقضت الصلاة.. رأى ﷺ تعجب أصحابه.. فقال لهم:

- لعلكم عجبتم من تخفيفي للصلاة؟
- قالوا: نعم!..
- فقال ﷺ: إني سمعت بكاء صبي فرحمت أمه..!!

أرأيت كيف يحب الآخرين.. ويظهر لهم هذه المحبة من خلال تعامله..

